

شعره ، لا في روح التعبير وحده بل تعداه إلى المعاني .

\*\*\*

مسكين حافظ ! ما أنمس أيامك التي قضيتها وما أشقاها ! إن كنت لاقيت  
منا جحوداً في حياتك فلن تقدم منا وفاء بعد مماتك . ان اسمك سيظل مذكوراً  
بعد أن كتب في ثبوت الخالدين . فلتنم ولتقر عيناً بين صحبتك الأبرار ، فإن معبد  
شهرتك الخالدة يطل اليوم على قبرك .

وما شهرتك إلا روحك التي ستعيش بعدك في قلوبنا

نظمى هليل

\*\*\*\*\*

## حافظ

فنانٌ كما يجب

الجمال في الحياة كثير : جمال الطبيعة ، وجمال اللذة ، وجمال الألم .  
والحياة في غموضها وإبهامها مظهر من مظاهر الجمال الرائع في الوجود ، والانسان  
— مذ كان — مدفوعٌ إلى تصوير هذا الجمال بوحىٍ روحيٍّ من احساسه في  
أسلوب يشفّ عن مبلغ هذا الاحساس ونوعه .  
فكان الموسيقيُّ والشاعرُ المصورُّ ومن الى هؤلاء الذين صفت عقولهم حتى  
صارت قلوباً .

وهؤلاء رسلُ الجمال في الحياة ، وكما اختلفت رسالاتهم في الفن قد تولدت أساليبهم  
بلون الشعور الذي حفزهم إلى الرمز والتعبير .

فزى مصوراً مثلاً قد ملكه جمالُ الطبيعة فقام يدعو لعبادة هذه الآلهة في  
بلاغة من الصمت الناطق ، ثم زى مصوراً آخر قد حيرته معاني الحياة ودقائق  
الوجود فسجد لجبروت هذا السر الرهيب ثم انبرى يصوّر هذه المعاني ويكشف عن  
تلك الدقائق بريشة العاطفة ومشعل الخيال .

وهكذا كان الشاعر ، وهكذا يجب أن يكون : يجب أن يقف كل شاعر في محراب  
من محارِب الحياة يسبّح لآله واحد من آلهة الجمال ، ويهتف بما يوحى اليه

من مماء هذا المعبود . يجب أن يبرز في ناحية واحدة من نواحي الشعر تطني على كل النواحي وتميزه عن غيره من الشعراء ، أى أن تكون له قيثارة واحدة يحملها دائماً ليعزف عليها كلما شاقه العزف حتى يصل بفنه إلى ما وراء الخلود .

... وهكذا كان حافظ .

عاد من السودان في شوق ولهفة الى مصر فرأى راية التيمس ترفرف على النيل وتداعبها نسبات السيادة والسلطان أحياناً ، تزجها عواصف الطمع والاستبداد ، ورأى تحت هذه الراية أمة مكبلة بالأغلال الثقيلة مستكينه لهذه القيود تغط في نومها غطيط الهادىء في سرر اليأس ووسائد القنوط . وكلما أحست وطأة السلاسل فتحت عينها وعولت على النهوض فتخونها قدماها وتتعثر في حبالها ويحلق فوق جفنها طائر النذير والوعيد من وراء البحار فينقلهما ويملؤها بالنوم مرة أخرى .

هذا المنظر دفع بحافظ الى ربوة من الهم والكآبة على ضفة النيل ، وهناك رمى في تيار النهر بالدف الهزيل الذى كان يضرب عليه وانتزع من بقايا قلبه المحطم قيثارة الوطنية والاجتماع . وأخذ يغنى فوق تلك الربوة قصيد الألم ونشيد الأئين، وجعل يرسل شعره نائراً صريحاً في ثورته ، نائراً على الأخلاق المصرية والرجولة المصرية وفي ثورته نصيحة واخلاص . وهل ترى أدعى إلى ثورة الشاعر الاجتماعى من أن يرى أبناء شعبه يهيمون باللقاب والشهرة العمياء وموالاته المستعمر العابت وكل هذه المظاهر التى ما تزال بيننا براءة خادعة الى ما بعد حافظ . وهو هنا يرمى في شعره الى الاغراض السامية ويصور المثل العليا ويكشف عنها في شجاعة فنية وموسيقية بارعة ، نائراً فى وجه المعتصب وهى ثورة الضعيف المبجوح وفي بحه صوته وضعفه نبرات المؤمن بحقه الصليب . أقرأ شعره الآن فأتحيله وكأنى أسمع منه الأئين المرء وأكاد أرى جراح قلبه والدم يسيل على جوانبها وهو واقف الى جانب مصر العاجزة النائمة ليوقظها بنحيبه ويمد بيدها الموثقة فى ضراعة الى المعتصب الجبار رجاء ان يرحم ذلها وضعفها ويفك أغلالها ثم يدعها تضمد جراحها بنفسها . وقد يشير إلى القوة الكامنة فى هذا الضعف ، والثورة الجارفة التى لا بد ان يخلقها القيد والاستعباد .

هذه الصور وغيرها تجدها حية فى قصائده الخالدة — دنشواى — مصر فوق الجميع — عادة اليابان — وأشباهاها .

« ٠ »

هذه هي رسالة حافظ الشاعر التي دعا إليها ووقف فنه على خدمتها طول حياته ، ولعله كان لا يصلح الا رسول وطنية واجتماع . فلقد حاول أن يجعل فنه باقة من مختلف الازهار ، ولكن شاءت طبيعته غير ما أراد . ولعمري ان الجمال الفرد الذي يشع من زهرة واحدة أبلغ تأثيراً في النفس من جمال حائر بين مجموعة زهرات . فهو حينما نظم في الغزل والمدح والخمر لم يكن فيه — على قلته — الا مقلداً دفعته رياح تقليدية من جنوب العصر . عرب ( البؤساء ) وكتب ( ليالي سطيح ) فخذله الفن فلم يوفق في أسلوبه ، وإن كان قد وفق في الغرض وأحسن القصد لأنه لم يكن الا شاعراً وشاعراً اجتماعياً فحسب . ولا ريب أنه في كتابته هذا وتعريفه ذلك كان مدفوعاً بالنزعة الاجتماعية المتركرة في طبيعته .

« ٠ »

بقى لنا أن نتساءل — ولا بد أن نتساءل بعد الذي قررناه — كيف ارتفع حافظ بعرائيه الى درجة من الدقة والفخامة تكاد تعدل مرأى أفحل الشعراء الذين هتف بنبوغهم الزمن في أبهى عصور الأدب العربي ؟

لا غرابة ولا عجب ، فهو إذ يرثي إنما ينظم أنات الشعب المفجوع في عظيم قدم نفسه قرباناً لآلهة الجهاد والتضحية ، أو مصلح كان يوقد عقله لينير الطريق التي تظللها أشجار التقدم والنهوض . فليس غريباً إذن أن يألم حافظ وأن يرسل آهاته من أعماق قلبه الذي أذابه حب وطنه فتأتى هذه الآهات فناً شامخاً رفيعاً — رثى محمد عبده — سعد زغلول — قاسم أمين — وغيرهم من رجالات نهضتنا فكان يرثي محمد عبده لانه يبكي محمد عبده كما يبكيه الشعب ، وهكذا لم يضرب على نغمة فاترة واحدة ، وإنما جاء شعره صدى ل احساسه المختلف ولا احساس الأمة نحو كل رجل وهذه هي القوة . وهذا هو الفن كما يجب وكما كان .

المهرى مصطفى

